السرقات الأدبية

والسرقة ـ مهما يكن ـ هي ظاهرة ثقافية اكاد اقول انها طبيعية جدا من حيث ان كل الثقافات الانسانية قد عرفتها ·· ولاحتها ·· واخذت فيها واعطت ! · وهي بكل اوزارها اقل خطرا على الثقافة من المداهنة والمراعاة واحترام الاعتبارات على حساب الحقيقة ··

ليست هناك اي ثقافة انسانية لا تعرف السرقة ··وقلما وجد اديب او شاعر لم يسرق او يقتبس او يقلد ·· حتى بين المشاهير وذوي المنزلة الفكرية العليا ·· وهذا سيدفعني الان الى « الثرثرة » حول هذه الظاهرة العجيبة التي تنهكها الادانات الفكرية حتى الزوال ·· وفي نفس الوقت ياخذها الاستعمال الى حد البقاء الدائم المستمر !

ففي الثقافة العربية وفي عصور الازدهار الادبي الاموية والعباسية كان للسرقة « دور » وكان لها حضور بارز .. وتستوي في ذلك السرقة من الثقافات الخارجية .. او السرقة بين نجوم الفكر انفسهم في تلك الاحقاب .. وعلى هذا الاساس اتهم كثير من هؤلاء بفضائح متعددة في هذا الميدان ولو لم يكن بينهم سوى شاعر الاشراق العربي ابي الطيب المتنبي لكان في ذلك عزاء كاف لكل « السراق » الذين اتوا بعده حتى يومنا هذا .

وفي الثقافة الاوروبية يقال ان القرن السابع عشر كان عصر ازدهار السرقات الفكرية وحتى العلمية . . . وموليير نفسه كان متهما بانه يسرق في احد كتبه من « سيرانو دو بيراجيراك »

وفي المجال العلمي يحكون انه في عام ١٩٧٠ رحل « العالم » الالماني ليبنز الى باريس ..ومن هناك كان يختلف الى انجلترا حيث كان يقابل رجلا اسمه (كولنز) وهو صديق « نيوتن » الذي كان يشتغل وقتها على اعداد « الحساب التفاضلي ».. يبدو ان ليبنز « سطا» على كل المعلومات التي كان يدونها نيوتن ثم اضاف اليها اضافات جيده نشرها مع النتائج التي توصل اليها دون اي علم من العالم الانجليزي ! ..

كانت فضيحة معقدة انقسم حولها الراى الجيرمنى والبريطانى ثم جاء فونتينل يقول : لقد توصل ليبنز الى نتائج جيدة ..ولكن اذا كان لا بد من الحديث عن سرقة فان ليس لها بطل غيره !

ويحكون انه في عام ١٨٨٦ قرر عالم التحليل النفسي « فرويد انيلحق بخطيبته في مكان ما من اوروبا وهنا اضطر الى ايقاف كل ابحاثه وتجاربه التي كان قد بداها على« الملكيات

التخديرية في الكوكائين) ثم عهد بادارة اعماله الى احد اصدقائه واسمه «كارل كوهلر » ولكن هذا الاخير كان هـــو الذي قدم النتائج باسمه الى مؤتمـــر طب العيون في هيدلبيرق بعد ان نفـذ ه في غياب فرويد ـ كل التجارب التي هياها العالم النفساني قبل رحيله !

وفي غير هذا الميدان هناك سرقـات لا تحصى فنية ·· وادبية ··وموسيقية وسينمائية لا زالت تحدث حتـــى هذه اللحظات ·· والذى ظل يهيىء لحـــدوث مثل هذه السرقات عـدة عوامل منها : الشهرة وطلب المال خصوصا ·· فمـا ان يسمع بعض القائمين في الميادين الثقافية بتحقيق عمل فني او ادبـــي بارز حتى يسعون الى اقتباسه وسرقة اكثر نصوصه ·· هذا دون النظر الى محاولات « التقليد » التي ظل يتسامح فيهـا المفكرون والفنانون حتى الان بل يعدونها احيانا احـد عوامـل (التلقيح المثمرة المنجبة والضرورية لكل تأسيس ثقافى او فنى ! ·

وعملية « اللطـش » من عمل ثقافي بـارز من اجل الشهـــرة والكسب المادي اكثر ما تتم في العصـــر الحاضر ··وهي تتم غالبا منميدان لميدان اخر مختلف ··فمثلا رواية ادبية حققت انتصارا جيدا فـــي اوساط القراء ليس بعيدا ان نجـــد روحهـا وبعض مواقفها وحتـــى نصوصها مدرجة في فيلم سينمائـــي لا يشير الى الرواية او الى صاحبهـــا من قريب او من بعيد !·· وعلى هـــذا المستوى تتباين درجات الاقتبـــاس والاستعارة والتقليد فتحتد حتىلا يكون للشك في ثبوتها اي مجال ·· وتخف وتتلاشى حتى تظل مسالة اخذ ورد بين مؤيد للسرقة وناف لها ! ·· والمحاكـم هناك لا تنقطع عنهـا مثل هذهالدعاوى التي تمنى بالفشل اكثر مما يكون لهـا رد فعل قانوني قاطع ··والسبب هـو انهـم هناك ظلوا دائما مختلفين علـــى تحديد ماهية السرقة ·· كما ظلـــوا مختلفين على تحديد عقوبتها بمســتوى شدتها ووضوحها !

وهنا يجب ان نغتسل في مفهـــوم السرقة عند المغربيين وعلى هذا يجب ان نذكر في البداية انه للتعبير عـــن السرقـة الادبيـــة بمصطلـح لغوى لا يستعملون كلمة Vole التى تعنى السرقة المادية المعروفة بل يستعملـون كلمة قانونية اخرى هي « Contrefacon » وتعني التزييف والتزوير .. وهـــذا المصطلح يطلق على السرقة عندمـــا تكون اقتباسا حرفيا للنص المسروق!.. اما عندما تكون السرقة اقتباسا للافكار وللمنهج فهم يعبرون عنها بكلمـــة « Plagiat » وهي تعني في الاصـــل جر عبد مملوك لاخـر الى الفســـاد وايوائه .. والعلاقة الخيالية هنا بيـن الاصل اللغوي للكلمة وبين عهدهـــا الاصطلاحي الجديد هي علاقة جديـرة بالتامل .. فالنص الادبي هو عبـــد مملوك للمؤلف . .او هو بمعنى اعـم احد ممتلكات المؤلف الذي افســـده عليه السارق .. وبالنسبة للسرقة بهذا المفهوم الاخيـر فقد ظلت ولا زالـــت مثار جدل طويل لا ينتهي وذلك من حيث تحديدها وكيفية ثبوتها .. ولنبدا الان باكثر مستوياتها تعتيما .. وهوالتقليد التقليـد من حيث انه محـاكاة لفـــن جديد .. او لطريقة تعبيرية جديـــدة تنتشر كموضة ادبية او فنية لا يدخـل في اطار السرقة .. فكل من يقلـــد ادونيس مثلا في بناءاته الشعريـة او في تصرفه اللغوي ليس سارقا .. بـل على العكس ففي ذلك ثراء لاتجـــاه تعبيري جديد .. وقد يكون هـــذا التقليد على مستوى (التلقيـح) الـذى اشرنا اليه سلفا يتم بعده او من خلاله ميلاد قدرة شعرية اضافية مستقلة !وهو

دليل صحة على اية حال !

ياتي بعد ذلك التقليد على مستوى التناول والاهتمام اللغوي بحيث يكون الشاعر الجديد صورة اخرى لادونيس ٠٠ وقد ياخذ حرفيا بعض تعبيراته وبعض صوره وهنا يكون عدد الذين يتهمونه بالسرقة قليلا جدا ولكنه يتورط في مسالة الاستعباد الصنمي للشاعر المثال ٠٠ او الشاعر الاصل ٠٠ ومهما يكن فهناك من المفكرين من يحرم هذا المستوى من التقليد ويعيبه وهناك من يؤيده بمفهوم ما ٠

ومن الاولين ـ مثلا ـ اندريه جيد الذي يقول : قوانين التقليد اسميها انا قوانين الخوف ٠٠ نحن نخاف ان نقذف بانفسنا وحيدين في مغامرة الابداع ولذا نضطر الى التقليد ٠٠ انني اكره هذا النوع من الخوف ٠٠ انه اشد انواع الجبن فلكي نبدع يجب ان نعلم انه لا بد ان نظل وحيدين !

و « جيد » على هذا الاساس يرفض التقليد بكل صوره ويدعو الى تحقيق مثالية مفرطة في الاستقلال الادبي لا يوافقه عليها أراقون الشاعر الفرنسي المعروف عندما يقول : انا اقلد ٠٠ وهناك اكثر من اديب احتسبنا التقليد عليهم كفضيحة ٠٠ الادعاء بعدم التقليد لا يخلو من النفاق والكذب وادعاء الورع ٠٠ كل الناس يقلدون ٠٠ وكل الناس يحجمون عن الاعتراف بهذه الحقيقة !

واراقون عندما قال هذه العبارة ربما كان يفكر فيما يقوله الصوريون الروس الذين يرون انه « ليس هناك سوى نص ادبي واحد يتشكل ٠٠ او ياخذ اشكالا مختلفة وهذا النص هو الذى يمثل كل الادب

لهذا فمسالة التسامح في التقليد تظل مسالة معقدة ياخذها المد والجزر في اختلاف اهواء المفكرين وتباين طبيعة ادراكهم لمفهوم التقليد وشكله وابعاده ومستواه ..والذي اراه شخصيا هو العمل على التوفيق بين موقف اندريه جيد وموقف اراقون .. فالاديب من واجبه بل من شروطه ، ان يبدع ولكنه مهما اوتي من قدرة على الابداع والاكتشاف لا بد ان يقلد.. ولا بد احيانا ان تنزلق على لسانه بعض لزمات زملائه في الميدان الادبي فكرا او لغة او تناولا !

هناك نوع اخر من انواع التقليد .. وهو التقليد الذاتي .. فهناك عند كاتب ما عناصر اساسية لنص ما ... هذا الكاتب يضطر - فصليا - الى ترديد هذه العناصر وترجيعها .. وهو هنا قد يتهم بانه يكرر نفسه ولكنه لا يعتبر سارقا حتى لو اعاد بعض افكاره الطويلة بالنص الحرفي دون الاشارة الى مناسبة النشر الاولى.

ناتي الان الى اقتباس الموضوع او « Le Theme » وهنا تثار مشكلة منطقية وهي الى اي حد تصل مسالة الاقتباس هذه ؟؛ هل تقف عند مستوى الموضوع من حيث هو موضوع عام.. او تتعدى ذلك الى اخذ الافكار اخذا حرفيا ؟!ان كانت الاولى فجيرودو يقول السرقة - على هذا الاساس هي قاعدة كل الاداب ما عدا الادب الاول .. ادب البداية .. والذي يعتبر غير معروف فمن يستطيع تحديد بداية الادب !؟

وهناك من يقول: هل الادب الا «دورة» النصوص داخل نصوص اخرى ! فكل الناس يكتبون عن الحرب .. وعن الموت .. وعن المجاعة .. وكل الناس يمتدحون الحق .. ويطالبون بالحرية .. ويناهضون الاضطهاد !

والكتابة احيانا عن مثل هذه القضايا تقترب اقترابا شديدا حتى يكاد يقال عنها انها تصدر من فم واحد وهنا تتحقق منطقية من يتساءل على هذا النحو :هل من الممكن كتابة نص ادبي ما دون ان يكون له اية قربى مع نص اخر ؟!

لو جمعنا ما كتبته الاقلام العربية عن الاعتداء الاسرائيلي على الجنوب اللبناني لوجدنا نفس اللهجة ..ونفس الطرح .. ونفس الحماس .. ونفس اللغة احيانا .. هل نعتبر كل هؤلاء سارقين !؟

ثم تضيق الدائرة في ميادين فنية اخرى من حيث الاقتباس الموضوعي حتى يشتد الامر على الملاحظ ويتورط في حرج نقدي فلا يستطيع ان يصرح بالسرقة كما لا يستطيع ان يعلن براءة العمل المطروح منها .. كما يحدث هذا ـ مثلا ـ في الروايات البوليسية ! فدائما هناك مجرم ..ودائما هناك بوليس .. ودائما هناك عدالة وهذه امور لا اختلاف عليها ولكن مجرى الحدث يشتبه .

في بعض المناسبات حتى تطغو فكرة السرقة .. او الاقتباس اذا اردنا تهذيب التعبير .. ولذا كان هناك بعض النقاد الفرنسيين الذين يرون ان الروايات البوليسية في فرنسا هي تقليد او سرقة من الروايات البوليسية الامريكية . ومثل ذلك يحدث في المسرح .. مسايره الظروف الدرامية كثيرا ماتخلق مواقف لبس متعددة في ذهن الناقد .

نجيء بعد هذا الى مستوى سرقة الافكار اى ان يسطو كاتب على افكار اخر فيصوغها باسلوبه ويذيلها باسمه .. وهنا اشعر باننا بدانا نقترب من السرقة الحقيقية .

قيل عن فلوتير انه كان يقول : عندما يبيع مؤلف افكار اخر على انها افكاره ـ هو ـ فهو سارق .

وهناك من يقول : لابد من العثورعلى عنصر نصي حرفي حتى يمكن الحديث عن سرقة ·· ومن يقول بهذا يعتمد على قاعدة واهنة وهي : أن (الافكار حق مشاع لكل الناس) فكل واحد من حقه ان ياخذ افكار الاخرين وينسبها لنفسه ثم لا يعد سارقا ·· والمشكلة ان هذا الراى معزز بموقف (قانوني ·· وهي ان القانون يرى أن (حقوق المؤلف) تتمثل في الامتياز الخاص به في الابداع الشكلي دون الافكار ·· لكي تقيم دعوى ضد سارق ·· ولكي يدين القانون هذا السارق فيما يسمى حقوق المؤلف ·· لابد ان يكون هذا السارق قد اخذ العمل بالنص الحرفي (لعل الاخ محمد علون يجد هنا اجابه على سؤاله الذي طرحه عن حكم السرقة) ·· فالافكار لايدين القانون السارق من اجلها ولكنه يدينه من حيث المنهج والتعبير ·· اما اخلاقيا ·· وادبيا فسارق الافكار الشخصية المحضة يعتبر سارقا و (النبذ) الاجتماعي والثقافي هو الذي يدينه وهو الذي سيحط على سمعته العلمية ·· وعلى اصداراته الثقافية ·

ومسالة ان الافكار حق مشاع (قاعدة تستغل استغلالا سيئا وتحديد المدية الادبية او الفنية على اثرها لا يزداد الا تعقيدا وغموضا ·· وكثيرا مايحدث تشابه في الافكار والمواقف هذا امر لا نزاع فيه ولكن ان يتم ذلك في النص الادبي الواحد اكثر من خمسين مرة وبقرائن استنتاجية منطقية فهذا لا يحدث الا في حالة واحدة فقط وهي حالة السرقة ·

كيف لو جاء كاتب واعاد باسلوبه قصة (البؤساء لهوقو ·· الا يعد سارقا ؟·· وكيف لو جاء اخر واعاد كتابة (اوليفر تويست) الا يعد ساطيا على افكار ديكنز؟ هذا النوع من السرقة هو الذي يدعونه (Plagiat) وهو الذي لا يدينه القانون

وانما تدينه الاخلاق والمسئولية الادبية :

النوع الاخير ·· وهو اعلى مستويات السرقة واوقحها واعظمها جراة ·· وهو ما يدعونه ـ كما سبق ـ

(Contrefacon)

ان التزييف والتزوير وهو يتحقق عندما يسطو انسان ما على عمل ادبى او علمي لاخر فياخذه بالنص الحرفي ويدعيه لنفسه وهذا النوع يعاقب عليه القانون · ويعاقب عليه المجتمع ايضا ·

ميشيل اريفيه يقول : (لو نقلت نصا للسيد دوفترلان ثم ارسلته الى برنار قراسيه (احد الناشرين) لينشره باسمي ستكون تهمتي التزييف والتزوير وهذا جنح وجريمة وله عقوبة قانونية هي عقوبة التزوير) ·

هذا النوع الصريح من السرقة لن يتعب النقاد والمتتبعين · ولن يضيع القانون في حرج ·· فهو تحد مباشر للاخلاق ·· الى جانب انه انتهاك علني لكل ما هومشروع عرفا وقانونا ·

ولكن بقي هناك السارقون الاخرون · انهم الخبثاء الذين يعملون كل مافي وسعهم لتضييع الملكية الادبية ·· بالدجل ·· وبالتلميس ·· الى درجة يصعب معها (ضبطهم) والاعلان ـ دون اى خوف ـ عن جرمهم اللا اخلاقي ·

هذه الملكية الادبية يجب ان نعلم ان تحديدها من اشق الصعوبات على الناقد عندما لا تكون السرقة صريحة ومباشرة · ولهذا سيظل بيننا لصوص ياكلون ويشربون ويسرقون ولا نستطيع ان نقيم عليهم الحجة القاطعة ·

سيظل هناك لصوص يغلفون سرقاتهم بالتمويه اللفظي او الاسلوبي ثم يتحدون كل من في الكون لاثبات سرقاتهم ·· هؤلاء هم المرض المزمن ·· ويمدون السنتهم في وجوهنا وليس لنا الا ان نسكت ·

الى الجحيم ايتها الحقيقة ·